

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

شوقى ألمعُ شاعر في تاريخ أدبنا العربي الحديث لتعدد نواحيه الفنية ، وتشعب آثاره الأدبية ، فقد ملأ عصره بقصائده الغنائية ، ووصلها بمسرحياته التمثيلية . وكان حين ينشر قصيدة تصبح حديث الصحف والندوات الأدبية ، وكذلك كان حين ينشئ مسرحية أو تمثيلية .

وقلما ظهر كاتب أو ناقد في عصره إلا حاول أن يطير إلى الشهرة بتعرضه لأعماله ، فتارة يصطدم به وبآثاره ، وتارة يثنى عليه ويغلو في ثنائه . فنقادہ كانوا في حياته بين اثنين : متحزب له أو متعصبٍ عليه ، وما يزال هذا شأنهم حتى اليوم ؛ كأنهم يقودون معركة .

وعلى نحو ما نعرف في المعارك من كثرة الأسلحة التي تُستخدَمُ كانت المعركة حول شوقى وشعره مغنياً وممثلاً ، فلا توسط ولا اعتدال فيما نقرأ عنه ، بل غبار كثيف تضيع في ثناياه الحقائق الأدبية ، ويضيع الثبوت والتوقف والنظرُ التامُ النافذُ

وطبيعي أن لا يظهر في أثناء ذلك بحث منظم عن شوقى ، فقد اكفهرت الأجواء الأدبية إزاءه بالثناء المسرف والطعن المجحف ، وأصبحنا لا نعرف أين الوجه الصحيح ، ولا أين المقدمات السليمة ، ولم نعد ندرى أى الأحكام فيه صادقٌ وأيها كاذب ، وأيها مصيبٌ وأيها مخطئُ

وبذلك عُجمت علينا حقيقة شوقى ، بل حقائقه الفنية جميعاً ، وكان هذا أكبر باعث لى على النهوض بهذه الدراسة التي لم أقصد بها إلى تهجينه ولا إلى تحسينه ، وإنما قصدت إلى بحثه ووزنه بمعايير سهلة هي معايير النقد المنصف

الذى لا يميل مع الهوى . وإنما يسجل الظواهر الأدبية متبعاً مستقصياً ،
فليس همه أن يُزرى ويتنقّص . ولا أن يزخرف ويزين ، وإنما همه أن يصور
الحق ويكشف الصواب

وبدأتُ بحياته . أتخذ منها مصابيح ، تهدينى الدروب والمسالك التى
كوّنت شاعريته . وبخنت فى صناعته ، وأطلعنى ابنه «حسين» مشكوراً على
ثلاث مسودات أولها لقصيدته « الله أكبركم فى الفتح من عجب » والثانية
والثالثة لفصل من « مجنون ليلى » فاستبان لى الطريق ، وعرفت كيف كان
يؤلف قصيدته ، وكيف كان يؤلف مسرحيته . وحاولت جهدى أن أستنبط
مدى بديته وقوى فطرته ، وإلى أى حد كان يجبرّ فى أساليبه ويتأقن فى
تصاويره ، مستخرجاً من قيّارة الشعر العربى أحلى أنغامها وأروع ألحانها .
ورأيتُ – رأى العين – فى هذه الصناعة البديعة تيارين يتقابلان : تياراً شقيقاً
عربياً ، وتياراً أوريبياً غريباً .

ووقفت بعد ذلك عند المؤثرات المختلفة التى أثرت فى صناعته ، وتأملت
فى معاول النقد القديم المحافظ والحديث المجدد التى ضربتُ بها أيدى نقادنا فى
شعره . وناقشت مناقشة هادئة كثيراً من المبادئ الهادمة لشوقى وفنه ، مستبصراً
فى ذلك متأنياً ما وسعنى الاستبصار والتأنى .

ونظرت فى مؤثر مهم أثّر فى شعر شوقى وفى صناعته ، إذ أخذ يخاطب
الجماهير عن طريق الصحف اليومية والأسبوعية ، فاتسع النداء عنده ، حتى
فى قصيدة المديح التى وُجّهت لصاحب مصر أو للخليفة التركى ، فقد وضع
نصب عينيه إرضاء الجماهير بمدائحهم ، وتسبّب إلى ذلك باستشعار عواطف
وطنية أو إسلامية أو عربية . ومن هنا زعمت أن شعره التقليدى فى المديح
وما يتصل به يختلف فى جوهره عن الشعر القديم ، حتى إذا رجع إلى وطنه
من منفاه وسقطت الخلافة التركية أصبح خالصاً لشعبه المصرى والشعوب
العربية ، فتغنى مشاعرهم وأحاسيسهم فى قصائد تحملها صدورهم ، وكأنها
تعاويز سحرية .

وكان ينظم في المناسبات المختلفة ، في الزناء ، وفي المخترعات ، وفي أعمال البر ، وفي المنشآت القومية . وكل ذلك من أثر الجماهير والاتصال بها عن طريق الصحف ومخاطبتها . وارتفع بشعر المناسبات إلى القمة التي كانت تنتظره ، وكأنه يتختم دورته في شعرنا الحديث ، فقد حقق له كل غاياته وأهدافه ، ولم يعد لأصحابه من بعده إلا أن يقفوا على السّفْح من دونه ، ويرتطموا بصخوره .

والغناء آخر المؤثرات التي وقفت عندها في صناعة شوقي ، إذ حوّل جوانب من شعره إلى أغان وأزجال ، فيها وهم خياله ، ويدعُ تصويره ، وفيها رنين أنغامه ، وحلاوة نبراته ، وفيها دقة شعوره ، ورقة حسّه . وبذلك كانت فتنة من فن عصره .

وخرجت من ذلك إلى مسرحياته ، فتحدثت عن مقوماتها العامة التي تشخصها ، وتجمع طوابعها وخصائصها ، ووزعت مأسية في اتجاهين : اتجاه مصرى استجاب فيه للعواطف الوطنية ، واتجاه عربى استجاب فيه للعواطف العربية والإسلامية . وتفضل «حسين شوقي» فأعازني ملهارة «الست هدى» التي لم تطبع بعد ، فحللتها ووصفتها في موضعها من هذه الدراسة ، وهي تحفة فريدة نسجها شوقي من حياتنا الاجتماعية الواقعية في أواخر القرن الماضي .

وبهذا كله تمّ تأليف هذا الكتاب الذي لم أوّلفه دفاعاً عن شوقي ، وإنما ألفته بحثاً منظماً في شعره الغنائى والتمثيلى . ولم أدخر وسعاً في أن أحيق الحق حين يجب لإحقاقه وإذاعته في غير محاباة لشوقي ولا تجنّ على غيره . فنحن لم نضع هذا البحث تشيماً لأنصاره وكذلك لم نضعه تعصبا لخصومه ، وإنما وضعناه ابتغاء تقويم شعره من جميع أطرافه تقويماً صحيحاً دقيقاً . والله وليّ الهدى والتوفيق .

شوقي ضيف

القاهرة في أول يونيو سنة ١٩٥٣ م .